Science and scientists in light of the Covid-19 Pandemic: the case of psychology and psychologists in Morocco

DOI: 10.57642/AJOPSY-1

El Rhali Aharchaou
aharchaou.rhali@gmail.com
Department of Psychology, Faculty of Letters and Human Sciences- Dhar El Mehraz, Sidi Mohamed Ben Abdellah University, Fes, Morocco
Recieved: 18/04/2023 Accepted: 05/05/2023 Published: 30/06/2023

Abstract

What is certain is that the new Corona virus, which has become a global pandemic, is not the first nor the last epidemic that the world has experienced. Excavations in the history of the memory of epidemics inform us of the emergence of such a pandemic and its presence through the ages and times. But what is new this time is that it has swept across most continents and countries of the globe with astounding speed. Thus, feelings of fear and anxiety dominated everyday life to such an extent that every human being has become suspicious of everything, including oneself, one's family and loved ones. Thus, according to the logic of scientific research governed by an objective analysis of the conditions of the world population in general and Moroccans in particular, and of all the difficult times they are going through in the light of this pandemic, and far from the logic from intimidation, rejoicing of people's dramas by publishing false information through videos and messages of deception and intimidation, we have tried in this article to highlight some characteristics of the role of sciences and scientists in general and psychology and psychologists in particular in the face of the present and future psychological repercussions of this pandemic, detailing the following four points: 1) The Covid-19 pandemic: The difficult ordeal for science and scientists 2) Covid-19 pandemic: from scientific explanation to mythical interpretation, 3) The psychological approach to the repercussions of the Covid-19 pandemic, 4) Psychological practice in Morocco and the repercussions of the Covid-19 pandemic.

Keywords: science; scientists; Covid-19 Pandemic; psychology; psychologists.

العلوم والعلماء في ظل جائحة كوفيد – 1: حالة علم وعلماء النفس بالمغرب

الغالي أحرشاو
aharchaou.rhali@gmail.com
شعبة علم النفس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية- ظهر المهراز، جامعة سيدي محمد بن عبد الله فاس، المغرب
الاستلام: 2023/04/18 القبول: 2023/05/05 النشر: 2023/06/30

ملخص

الأكيد أن فيروس كورونا المستجد الذي أصبح يشكل جائحة كونية، لا يمثل أول ولا آخر وباء عاشه وعرفه العالم. فالحفر في تاريخ ذاكرة الأوبئة كفيل بأن يخبرنا بظهور مثل هذه الجائحة وحضورها عبر العصور والأزمنة. لكن الجديد هذه المرة يكمن في كونها اكتسحت معظم قارات وبلدان المعمور بسرعة مذهلة. وهكذا هيمنت مشاعر الخوف والقلق على جل مناحي الحياة، إذ صار الإنسان يشك في كل شيء بما في ذلك ذاته وذويه وأقرب المقربين إلى نفسه. وعملا بمنطق البحث العلمي المحكوم بالتحليل الموضوعي لأحوال ساكنة العالم عامة والمغرب خاصة، وكل ما تمر به من أوقات عصيبة في ظل هذه الجائحة، وبعيدا عن منطق التهويل والاسترزاق بمآسي الناس بنشر أخبار ومعلومات زائفة عبر فيديوهات ورسائل الخديعة والتخويف، فقد حاولنا في هذا المقال إبراز بعض معالم دور العلم والعلماء عامة وعلوم وعلماء النفس خاصة في مواجهة مختلف التداعيات النفسية والذهنية لهذه الجائحة حاضرا ومستقبلا، وذلك من خلال التفصيل في النقاط الأربع التالية: 1) جائحة كوفيد-19: الامتحان العسير للعلوم والعلماء، 2) جائحة كوفيد-19: من التفسير العلمي إلى التأويل الغيبي، 3) تداعيات جائحة كوفيد-19 في ظل المقاربة النفسية، 4) جائحة كوفيد-19 في ظل الممارسة النفسية بالمغرب.

الكلمات المفتاحية: العلم؛ العلماء؛ جائحة كوفيد - 19؛ علم النفس؛ علماء النفس.

مقدمة

نبتغي من خلال هذه المساهمة مساءلة مكانة العلوم ودور العلماء في التعامل مع ما يعيشه العالم من تداعيات صحية ونفسية مؤثرة ومن انعكاسات اجتماعية واقتصادية عميقة نتيجة جائحة كوفيد-19. فغايتنا الكشف عن معالم تلك المكانة وعن مقومات ذلك الدور بخصوص أساليب التعامل مع تلك الجائحة، استطلاعا وفهما وتفسيرا وتدبيرا، من خلال استحضار أولا جملة من الحقائق والوقائع التي تقعِّد منظومة العلوم والعلماء، والعمل ثانيا على استنطاق عينة من القضايا المرتبطة بالموضوع المطروح عالميا ووطنيا. لكن قبل ذلك، يستحسن بنا الاستهلال بمقدمتين إثنتين:

- حيث إن العلم والبحث العلمي ليس حكرا على دول بعينها، فالأكيد أن دورنا في المغرب لا يجب أن يقتصر في مواجهة الأوبئة والكوارث عامة على الانتظارية والاتكالية، بل صار من الضروري الانخراط في مشوار البحث العلمي بهدف الخلق والإبداع والابتكار. وهذا أمر بدأنا نلمس بعض بشائره ونجني بعض ثماره من خلال ما أصبحت بعض الكفاءات المغربية المتمكنة من ناصية العلم والبحث العلمي تساهم به من ابتكارات واختراعات قابلة للاستثمار والتوظيف في مواجهة التداعيات الصحية الجسمية والنفسية لوباء كوفيد- 19 الذي ما يزال يتربص بنا عبر متحوراته التي وإن خفت درجات عدواها فهي حاضرة بيننا بشكل من الأشكال.

- الراجح أنه لم يعد من المقبول المفاضلة في البحث العلمي بين ما هو خاص بعلوم الطبيعة وما هو خاص بعلوم الإنسان، لأن غايتهما معا تصب في تحقيق رفاه الإنسان ورُقِيِّه من خلال خدمة التنمية الشاملة المستديمة. فأمر التمييز بينهما لا يعدو أن يكون إلا في الشكل والدرجة، وخير دليل مقنع على أن العلاقة بين هذين البعدين هي علاقة تفاعل وتكامل وليست علاقة تفاضل وتباين، هي أن مخرجات وتطبيقات كليهما صارت مطلوبة وضرورية في التعامل مع الجائحة الحالية، إن على مستوى التجهيزات والطواقم البشرية والممارسات الطبية، أو على مستوى مساهمات وتدخلات الأخصائيين في علوم النفس والطب النفسي. وهذه مسألة سنعود إليها في المحورين الأخيرين لهذا المقال.

1. جائحة كوفيد-19: الامتحان العسير للعلوم والعلماء

في الواقع كثيرا ما توقظ أزمات الحاضر كوارث الماضي التي كان يعتقد أنها طويت ودفنت إلى الأبد في الذاكرة الجماعية. فبعدما أصبح فيروس كوفيد-19 جائحة عالمية، صار الكثير منا يقوم بحفريات في تاريخ ذاكرة الأوبئة علَّه يعثر فيها على ما يشفي الغليل ويبدد الشكوك التي حلت بالإنسانية جمعاء بفعل كونية هذا الوباء الذي كما جاء في مقال سابق نشره لي موقع شبكة هيسبريس للأخبار خلال شهر أبريل 2020 " إذا كان تفشي هذا الوباء قد كشف عن نقاط ضعف كبيرة في الاستجابة العالمية لمواجهته بالعلاج واللقاح اللازمين، فالأكيد أن الأوبئة المختلفة التي عرفها التاريخ البشري مثل الطاعون والموت الأسود والجدري والكوليرا والإنفوانزا الإسبانية وغيرها، قد غيرت مجرى العالم وحصدت أرواح الملايين من ساكنته، وأثرت في حضاراته وثقافاته المتعاقبة. وهذا أمر يصدق على الوباء الحالي الذي عَوْلَمَ العالم من جديد ليحوله من قرية صغيرة إلى سجن كوني كبير بفعل العزل الصحي، وذلك في انتظار الخلاص بحدوث معجزة قريبة في مجال اكتشاف علاج منتظر أو صناعة لقاح مرتقب" (أحرشاو، 2020، أ).

بالاحتكام إلى منطق العلم وضوابطه، فالراجح أنه لم يسبق للعلماء التنبؤ باحتمال وقوع وباء مدمر بهذا الحجم والمستوى وبهذه السرعة والحدة، رغم كون العالم يعيش منذ سنوات عصر ازدهار الاكتشافات الميكروبيولوجية والثورات الرقمية التنبؤية والذكاءات الاصطناعية الاستشرافية. إن ما هو حاصل ويحصل، يعتبر بحق امتحانا عسيرا لمنطق العلم والعلماء، واختبارا صعبا لذكاء الإنسان وكفاءته، وزلزالا قويا لمنظومة القيم والثقافة والتعليم وأنظمة الاقتصاد والصحة والتشغيل. فليس من باب المبالغة القول إن الجائحة الحالية تشكل أشد صدمات عصر العولمة الحديث. فالفيروس الكامن وراءها يتجاهل ويتحدى مختلف الأجناس وشتى الحدود. فهو يعشق السفر ويهوى الترحال بدون جواز عبر مختلف وسائل النقل البرية والبحرية والجوية وحتى الهوائية ليحل ضيفا سريع الانتشار والعدوى وسط أكثر ما يمكن من ساكنة أغلب أقطار المعمور. فمثلما سبق لي شخصيا التنصيص على ذلك، " فَوَاهِمٌ من يعتقد بأن العالم سيعود بعد انطفاء وتلاشي هذه الجائحة إلى وضعه السابق. وخاطئ من يظن بأن عناصر الإيمان، العقل، العلم، التعلم، العمل، القيم، التقدم، كمقومات جوهرية لهذا العالم ستبقى هي نفسها. فكل هذه المقومات وسواها ستعرف تغيرات وتحولات، قوامها ترسيم وتأثيث خارطة جديدة لعالم جديد، تخترقه طولًا وعرضًا تداعيات رهاب هذه الجائحة التي سَاوَتْ بين جميع البشر علي الأقل في احتمالات الإصابة بالعدوى وليس في إمكانيات التطعيم والاستفادة من العلاج. فلا فضل لأبيض على أسود، ولا لعجمي على عربي، ولا لمسيحي على مسلم، ولا لغني على فقير إلا بحكمة العقل وعمق الإيمان وتوازن النفس ووفرة المناعة. فالجميع أضحى يعيش نفس نوبات الخوف والهلع والقلق، إلى حد أن حوالي الثمانية مليارات المكونة لمجموع الساكنة المنتشرة على كوكب الأرض، أصبحت في أكثر من نصف تعدادها رهينة سجن كوني تحكمه عولمة رهاب هذه الجائحة (أحرشاو، 2020، ب).

إذن فبعدما كان جزء مهم من العالم ينظر إلى العلوم بوصفها سجلا للحقائق المثبتة التي لا تقبل التشكيك أو التَّفنيد، اتضح بشكل فجائي أن مُمْتَهِني هذه العلوم وخصوصا في ميادين الطب والصحة عامة تخترقهم بعض الاختلافات بخصوص أسلوب التعامل مع فيروس كورونا، وقاية واحترازا، تشخيصا وعلاجا، تطعيما ودواء. وهي الاختلافات التي زَرَعَتْ بذور الشك في نفوس وأذهان كثير من الشرائح والفئات الاجتماعية الهشة اقتصاديا وثقافيا وعلميا من ساكنة العالم.

لكن تلك الشكوك التي تقف وراءها عوامل عدم الإلمام بمنطق العلم والخوف الناجم عن صدمة ما هو حاصل، لا يمكنها أن تصمد أمام منسوب الثقة العالية في تلك العلوم التي جرت العادة على أن استمراريتها وتطوراتها مشروطة بتعدد الرؤى والمقاربات، وتنوع النزعات والبراديغمات، واحتدام الجدالات والسجالات، والمراوحة بين الاتصال والانفصال وبين التصديق والتفنيد. فمثل هذه المقومات والتمظهرات التي تتميز بها سيرورة العلوم عامة، كانت وما تزال تشكل حسب تصورات إبستمولوجيا العلوم، الطاقة المغذية لتطورها وتجددها عبر العصور والأزمنة (Edgar, 2020, a).

لذا وبعيدا عن مختلف الشكوك التي قد تتسبب فيها كثرة التأويلات والقراءات غير المعللة علميا لحد الآن بخصوص مسببات ودوافع ظهور وتفشي هذا الفيروس الفتاك، حيث يبقى السؤال مطروحا حول مصدره الحقيقي: هل هو نتيجة للطبيعة؟ أم لتلاعب إنساني مدبر؟ أم لخطأ مخبري تلقائي؟، وبعيدا عن الممارسات الخرافية والتنجيمات الغيبية التي يحترفها كثير من الدعاة والدجالين خلال الشدائد والأزمات، نشير إلى أن العلوم والمعارف بمختلف تخصصاتها كانت وستبقى حقولا معرفية خصبة للتداول والسجال والاختلاف والمعاناة، بحثا عن الحقيقة التواقة أولا وقبل كل شيء إلى خدمة الإنسان وإرضاء حاجاته الواقعية المقبولة، وليس إشباعا لنزواته النرجسية الشاذة ولا يقينياته الوهمية الطائشة، ولا تحقيقا لمطامحه في الهيمنة والسيطرة التي قد تجلب عليه وعلى العالم بأكمله الدمار والخراب. فَوُثُوقِيَّةُ العلم لا يجب أن تشرطها لا أوهام الخيال العلمي، ولا تخيلات التفكير الخرافي، ولا تنبؤات التنجيم الغيبي، بل إن يقينيته النسبية، وليست المطلقة كما يعتقد الكثيرون، مشروطة أولا وأخيرا بمستوى واقعية مخرجاته ونجاعة نتائجه في خدمة الإنسان في علاقته بوجوده الذاتي المحلي وبوجوده الكوكبي الكوني (Edgar, 2020 b).

2. جائحة كوفيد-19: من التفسير العلمي إلى التأويل الغيبي

إذا كان أحد أهداف العلم يتحدد في التفسير العلمي الذي يجعلنا ندرك العالم الواقعي ونفهمه بشكل أفضل، فإن أهم الشروط الناظمة لذلك التفسير تتلخص في غايات قوامها: الالتزام أولا بالموضوعية والحياد في تشخيص العلاقات القائمة بين الظواهر الطبيعية والإنسانية والاجتماعية، والتمكن ثانيا من معارف الواقع الدقيقة والقابلة للتنظيم والتفسير، ثم الوعي ثالثا بالأنشطة والوظائف المهنية التي يمارسها علماء الحقول المعرفية الطبيعية والإنسانية على حد سواء (أحرشاو، 2016).

إذا كانت خاصيات الموضوعية والدقة والتنظيم والتقويم والممارسة التطبيقية تشكل العناصر الحاكمة للمعارف العلمية، فإن المعارف الساذجة المتشبعة بالحدوس المشتركة والعادات الشعبية والأساطير الخرافية، غالبا ما يقبلها الفرد كما هي دون أي تقييم لمحتوياتها ولتقنيات إنتاجها. فهي عادة ما تتميز بنزعة التجذر والمقاومة والاستمرار حتى وإن كانت وقائع الملاحظة تكذبها أو تشكك فيها، على عكس المعارف العلمية التي وإن كانت تتميز بالشمولية والاستمرارية فإن نزعاتها ونظرياتها وبراديغماتها تشكل على الدوام مواد للتأمل ومواضيع للتقييم، إما بهدف التطوير والتجويد، وإما بغرض القطيعة والتجاوز (أحرشاو، 2017).

تبعا لهذا التحديد، نشير إلى أنه خلال الكوارث والأوبئة المفاجئة غالبا ما يحصل ارتباك خطير بين الخطاب المبرر بالتفسيرات العلمية والخطاب المعلل بالتأويلات الغيبية. فمتى تعذر توضيح ما لا يمكن تفسيره بالعلم والمنطق، إلا وتم التوسل في شرحه (خصوصا للعامة من الناس) إلى الغيب والخرافة والإشاعة. وهذا أمر عاشته البشرية خلال كثير من الأوبئة السابقة، حيث تتحدث نصوص بلاد ما بين الرافدين عن استمتاع الآلهة بنشر الأوبئة على الأرض. وفي المقابل تلقي نصوص أبوقراط باللوم في تفشي وباء التيفوس باليونان في القرن الخامس قبل الميلاد على متسببي تلويث الهواء والماء والطعام بالميكروبات. وقد عملت الحضارة اليهودية المسيحية من جهتها على تقديم تفسير أكثر أخلاقية للأوبئة، بدعوى أن الله يتخذ من الموت بفعل الوباء العقاب المستحق لكل مقبل على الخطيئة والعصيان. وفي العصور الوسطى كان السائد عدم الثقة في الطب لأنه يمثل عقبة أمام الإرادة الربانية في تدنيس الجسد بالمرض والوباء (Blaise, 2020).

في نفس السياق، تجدر الإشارة إلى أنه ورغم انتصار عقيدة باستور Pasteur الميكروبيولوجية المبنية على الملاحظة والتجريب والاستدلال في نهاية القرن التاسع عشر، إذ سيتوقف الأطباء عن النظر إلى الخوف كسبب محتمل للمرض والوفاة، فإن التفسير الغيبي غير العقلاني سيبقى صامدا لينتعش من جديد مع انتشار مشاعر الخوف والهلع نتيجة بعض الأوبئة التي عرفتها ثمانينيات القرن العشرين. وهو أمر يصدق في حالة جائحة كوفيد-19 الحالية التي أصبحت تجتاح العالم طولا وعرضا؛ بحيث إنه وبفعل الشك في قدرة العلم والعلماء على اكتشاف الدواء واللقاح الناجعين، أصبحت الإنسانية مجددا أمام ممارسات وسلوكيات تغذيها وصفات تتراوح بين نزعات عقدية دينية، وبين تفسيرات غيبية أسطورية، ثم بين تأويلات غارقة في الدجل والخرافة. وهذه مسألة توضحها السلطة العقدية التي يمارسها بعض رجالات الدين أصحاب الغلو والتطرف على أتباعهم ومُرِيدِيهِم بدعوتهم إلى التمرد على فيروس كورونا، ومجابهته بطقوس دينية تارة، وممارسات غيبية تارة، ووصفات نباتية طبيعية تارة أخرى. فتبعا لبعض متطرفي مشايخ وقساوسة وحاخامات الديانات الثلاث، فهذا الفيروس لا يصيب لا المسيحيين ولا اليهود ولا المسلمين. وهذه مسألة تؤكد عليها مضامين عديد من الأشرطة والفيديوهات والرسائل التي أضحت منصات التواصل الاجتماعي بمختلف أشكالها ووسائلها تعج بها وتعرضها بشكل مكثف ومتواصل خلال السنوات والفترات الأخيرة. وهي عبارة عن دعوات وخطابات ووصفات عجيبة وغريبة، غايتها القصوى العمل على تطويق هذا الوباء الذي استعصى علاجه الطبي بشكل نهائي حتى الآن على أشهر وأجود علماء ومختبرات العالم.

الحقيقة أن سرعة انتشار وتفشي فيروس كورونا كان لابد وأن يؤدي بهؤلاء المشايخ والقساوسة والحاخامات إلى مثل هذه الممارسات، بل الأكثر من ذلك إلى البحث عن كبش فداء لزرع مزيد من الشك والريبة في نفوس ساكنة الهوامش والنسيج الاجتماعي الهش تجاه العلم والعلماء. فغايتهم الوحيدة للإقناع والتفسير تتمثل في اتخاذ إجراءات الحجر الصحي ومنع المخالطة والمصافحة والعناق ثم طقوس الجنازة والدفن المألوفة، كمطية للرفع من منسوب عدم الوثوقية في العلم والعلماء، رغم الدور الوازن الذي صار علماء ومهنيو الصحة الجسدية والنفسية يقومون به في هذا النطاق.

إذن، فبعدما ظن العالم وخاصة في البلدان المتقدمة أن ملف الأمراض والأوبئة المُعْدِيَّة قد طُوِيَ بصفة نهائية مع أواخر القرن الماضي، فقد عرف منذ ذلك الحين أوبئة عديدة من أبرزها الإيدز وأنفلونزا الطيور وإيبولا وجنون البقر وحاليا كوفيد-19. وهذا ما يفند كل تلك الظنون ليؤشر على أن الكوارث الوبائية التي اعتقد الكثيرون أنها اختفت إلى غير رجعة، ستتكاثر وتتقوى بفعل تدخل الإنسان في الطبيعة وتلويثها. فالأكيد أن الملايين من الأرواح وبالخصوص في المناطق المتخلفة والفقيرة من العالم ستزهق أو ستشرد، لأن العلاجات الممكنة واللقاحات المقبلة ستكون من منظور أغلب المتخصصين في الموضوع جد مكلفة، ولن ينعم بها سوى أغنياء ومحظوظي هذا العالم الذي صار يوما بعد يوم يفقد مناعته الصحية وكرامته الإنسانية وتوازناته الاجتماعية (Blaise, 2020).

3. تداعيات جائحة كفيد-19 في ظل المقاربة النفسية

أكيد أنه خلال حالات الخوف الجماعي التي عاشتها البشرية على مر تاريخ الأوبئة المختلفة، فإن الخوف الفردي من أي شيء لا يمكنه إلا أن يتغذى من الرهاب الجماعي للآخرين والعكس بالعكس. ففي حالة جائحة كوفيد-19 الحالية يبدو أن هذه المعادلة حاضرة بقوة نتيجة المنسوب القوي والسريع للمعلومات والأخبار الفاقدة للمصداقية أحيانا، التي تنشرها وسائل الإعلام والاتصال المتنوعة بما فيها شبكات التواصل الاجتماعي. فحسب كثير من المتخصصين في علوم النفس والاجتماع والتواصل والذكاء الاصطناعي، فإن هذه الشبكات التي لم يسبق لها أن تواجدت خلال جائحة بهذا الحجم، هي التي تسرع من ظاهرة عدوى الرهاب الجماعي والفردي على حد سواء. فصور ومشاهد الصفوف البشرية الطويلة والرفوف الفارغة من السلع والمستشفيات المكتظة بالمصابين بالفيروس والطواقم الطبية المنهكة بكثرة التدخل والمداومة، وفيديوهات الترهيب ورسائل التخويف والإشاعات المغرضة التي تعج بها هذه الشبكات إلى حد التخمة، كلها تشكل مادة خصبة لزرع مشاعر الخوف والهلع، وإثارة عواصف الانفعال والقلق، والرفع من وتيرة استجابات الرهاب وردود الأفعال الآلية غير المراقبة. فحينما تصبح مثل هذه الصور والمشاهد والفيديوهات والإشاعات هي الأكثر مشاهدة واستهلاكا بغض النظر عن مدى واقعيتها وحقيقتها، فمن الطبيعي أن يتفاعل معها أغلب المشاهدين من خلال الاعتقاد أن ما تبثه وتعرضه من ممارسات وسلوكيات يمثل الشيء الصحيح الذي يجب القيام به. وهذه مسألة أصبحت محسومة في المقاربة المعرفية للظواهر النفسية والاجتماعية، إذ حينما لا يعرف الفرد كيف يتفاعل مع المواقف التي لم يألفها، مثلما هو الحال بالنسبة لمستجدات وتداعيات جائحة كوفيد-19، فإنه يستنجد الدعم والتوجيه، أو يتماهى مع ما يفعله الآخرون. فإذا كنت في فضاء للتسوق ورأيت بالصدفة الزبائن يقبلون بشراسة على اقتناء أنواع من البضاعة، فالراجح أنك قد تفعل بشكل تلقائي ارتكاسي الشيء نفسه دون أن تفكر في العواقب، أو أن تتأمل الأمر لتتحقق مما إذا كان الشيء الذي قمت به لا يشكل بالضرورة الشيء الصحيح الذي يجب القيام به.

السؤال المطروح إذن يتلخص في كيف ينظر العلم في بعده السيكولوجي إلى ممارسات وسلوكيات الأفراد والجماعات تجاه كوفيد-19؟ ما هي مبرراته التفسيرية لنوبات الهلع والقلق التي تحل بالبعض في مقابل لحظات الهدوء والسكينة التي يعيشها آخرون؟ في محاولة تقديم إجابة أولية بهذا الخصوص، يمكن الافتراض بأن الانزياح المعرفي biais cognitif لجزء من ساكنة العالم نحو التفاؤل يمكنه أن يشكل أسلوبا مفيدا لتهدئة هلعهم وتوترهم. فهم يعتقدون بأنهم أقل عرضة لعدوى هذا الفيروس إما لصغر سنهم أو لمناعتهم القوية أو لاحتياطاتهم المكثفة في النظافة والتغذية والعزل الصحي. وفي المقابل فإن الانزياح المعرفي لجزء آخر من تلك الساكنة نحو التشاؤم يمكنه أن يمثل أسلوبا مساعدا على ترويعهم والرفع من توترهم إلى حد الظن بأن التقدم في السن وقلة التغذية والمناعة، ستحكم عليهم بالإصابة بهذا الفيروس وبالموت حتما بالرغم من كل المحاذير والاحتياطات المختلفة (Laurent, 2020).

ومن منظور سيكولوجية المواجهة psychologie du coping التي نتبناها في التعامل مع هكذا ظواهر، فإن نفس هذا الانزياح نحو التفاؤل ظهر أثناء الأزمة المالية العالمية لعام 2008، إذ تم الاعتقاد آنذاك وخاصة من لدن كثير من رجال المال والأعمال والاقتصاد والسياسة أن الوضع يمكنه أن يصمد أمام الأزمة في تجاهل تام لمعطيات ومؤشرات تفشيها وتداعياتها الوخيمة. فهذا الوهم المعرفي الذي قد يغطي 80٪ من ساكنة العالم بمختلف بلدانها وجميع أعمارها، هو الذي يقود في اعتقادنا الشخصي هذه الساكنة إلى التقليل من احتمالات التعرض للكوارث والأوبئة كما هو الحال في جائحة كوفيد-19. وهو وهْمٌ يشكل في الآن نفسه وَجِيهَةً تجمع بين خاصية خطورة إيجابية الأفكار والأحكام تجاه تلك الكوارث والأوبئة لدى أصحاب الانزياح المتفائل، وخاصية أريحية سلبية الأفكار والأحكام تجاه نفس الكوارث والأوبئة لدى أصحاب الانزياح المتشائم (Sharot, 2011).

ففي حالة وباء كورونا الذي عاشه وما زال يعيشه العالم حاليا، فإن الانزياح نحو التفاؤل، من ضمن عوامل أخرى، يمكنه أن يفسر على أساس أن جزءًا من الساكنة لا تتمثل ولا تقيم خطورة الوباء بالشكل المطلوب، أو أن شحناتها الانفعالية

الداخلية وظروفها المادية المعيشية تحكم عليها بصعوبة الامتثال لتدابير الوقاية والحذر والعزل والاحتواء. ولكي نوضح المسألة بصورة أعمق، فإن وسائل الإعلام بمختلف منابرها وفي شتى أقطار المعمور، بقدر ما تعج بأخبار ومعلومات تؤكد على خطورة الوباء الحالي وفداحة تداعياته، فقد اتضح من دراسات في سيكولوجية المخاطر أنجزت على عجل في السنتين الأخيرتين في مناطق مختلفة من العالم، أن غالبية المستجوبين يغمرهم تفاؤل كبير بشأن التقليل من خطر الإصابة بالعدوى. لكن الملاحظ أنه مع كثافة انتشار الفيروس وصرامة الإجراءات المتخذة للحد من تفشيه، أصبح التفاؤل القوي يتراجع بنسبة دالة ولم يعد يقوى أمام منسوب التشاؤم السريع بفعل الحجم الهائل للخسائر في الأرواح والاقتصاد والخدمات التي تداوم المنابر السابقة الذكر على بثها بشكل مفرط وممل في كثير من الأحيان. فقد ارتفع منسوب القلق والخوف من الإصابة بالعدوى لدى أكثر من 70% من ساكنة العالم، وبالتالي فمتى كان الغموض يحيط بأسباب أي وباء بما في ذلك الوباء الحالي الذي هو عبارة عن فيروس - لغز يلفه الغموض من حيث الأصل والمصدر والدواء واللقاح، إلا وكانت ردود أفعال نسبة كبيرة من الناس محملة بمخاوف وتوترات تتزايد حدتها مع مرور الوقت، وتتضاعف كلفتها الصحية جسديا ونفسيا. وفي المقابل يكون العكس هو الصحيح بالنسبة للحوادث المألوفة والمخاطر المعروفة الأسباب والعواقب، وفي مقدمتها حوادث السير والسكتات القلبية وأمراض السرطان والسكري والتدخين التي تحصد مئات الآلاف من الأرواح يوميا عبر العالم دون أن تصاحبها نوبات الفوبيا العارمة التي عاشتها وما تزال تعيشها أغلب ساكنة العالم بفعل كوفيد-19.

4. جائحة كوفيد - 19 في ظل الممارسة النفسية بالمغرب

إن المغرب الذي عاش خلال ذروة انتشار فيروس كوفيد - 19 في عزلة ذاتية، شأنه في ذلك شأن ما يقارب نصف ساكنة العالم للاحتماء من عدوى هذا الفيروس، قد اتخذ في وقت مبكر إجراءات صارمة ومكلفة من قبيل: إغلاق الحدود مع أغلب دول العالم، العزل المنزلي فضلا عن الحجر الصحي، منع التنقل بين المدن والبوادي، ضبط ومراقبة التجول نهارا ومنعه ليلا، ثم نزول السلطات الأمنية بمختلف مكوناتها إلى الشوارع في معظم المدن والقرى، وبالتالي الانخراط في أكثر عملية عزل قسري وحصار طوعي على مر تاريخه الممتد لما يقارب 14 قرنا.

ولعل أهم مقومات أسلوب تعامل المغرب مع هذه الجائحة منذ حلول فيروسها اللغز ضيفا شبحا قادما من الخارج في أوائل شهر مارس من سنة 2020، هو نجاحه الواضح في تعبئة جبهته الوطنية وتحصينها عبر تقوية انتمائها الوطني وتعزيز رابطها الاجتماعي وتفعيل قيم التضامن والتكافل والمسؤولية والالتزام. فقد تميز أسلوب التعامل هذا بتعبئة وطنية دينامية وشاملة لأغلب الطاقات والكفاءات والموارد المادية والبشرية التي تزخر بها ربوع الوطن وجهاته المختلفة. فماعدا بعض الخروقات القليلة للعزل الصحي المتحكم فيها، فالكل أصبح معبأ للإبحار بسفينة المغرب والمغاربة بشتى فئاتهم العمرية والجغرافية والاجتماعية إلى بر الأمان، وبالتالي الخروج من هذه الأزمة أو الكارثة بأقل الخسائر والأضرار وخصوصا في الأرواح.

في محاولة تقييم مكانة ودور علم النفس في مواجهة بعض تداعيات هذه الجائحة فإن أهم خلاصة يمكن التأكيد عليها هي أن هذا العلم يعتبر إلى جانب علوم الطب والذكاء الاصطناعي والتواصل والمعلوميات، التخصص المعرفي الأكثر بروزا خلال ظهور هذا الوباء في المغرب. فقد حقق على مستوى الإشعاع والممارسة خلال هذه المدة الوجيزة ما لم يحققه على امتداد ما يقارب عقدين من الزمن خلال استقلاله كتخصص قائم الذات. فبفعل مساهمات كثير من علمائه وأخصائييه وممارسيه على مستوى مواكبة الصحة النفسية للمغاربة المصابين وغير المصابين قبل العزل الصحي وأثناءه وأكيد بعده، إما بالإنصات والاستشارة والتوجيه، وإما بالدعم والتدخل والمرافقة عبر مختلف وسائل الاتصال والإعلام المكتوبة والمسموعة والمرئية وشبكات التواصل الاجتماعي، أصبح هذا العلم يقوم فعلا بوظيفته التطبيقية التي لطالما كان يفتقدها إلى حد كبير قبل حلول جائحة كوفيد-19 بالمغرب.

إذن فبعدما كان علماء النفس وإلى عهد قريب يقبعون في برجهم العاجي داخل أسوار الجامعة، مكتفين بالتدريس والبحث الأكاديمي، بعيدين عن الانفتاح على مشاكل المغاربة وصحتهم النفسية والعقلية إلا فيما ندر، أصبحوا اليوم وفي مدة قياسية يجارون من حيث دورهم ووظيفتهم ما يقوم به علماء الطب والهندسة والذكاء الاصطناعي والمعلوميات والتواصل الذين يتقاسمون معهم الحقل المعرفي لما يسمى بالعلوم المعرفية. وبتعبير أدق فإن علم النفس الذي لم تكن ممارسته التطبيقية تتجاوز بعض المساهمات المحتشمة إما داخل الفضاء الجامعي وإما في بعض المؤسسات الصحية والأمنية والسجنية المحدودة، وذلك بفعل أولا سيادة الأنماط الثقافية والتمثلات الاجتماعية المقاومة لخدماته، وثانيا تهميشه على صعيد التثمين المؤسساتي وتقديم الخبرة والاستشارة النفسية، صار في زمن كوفيد-19 يصدق عليه القول المأثور "وربَّ ضارة نافعة" ليقوم بدور كبير في حماية صحة المغاربة النفسية من تداعيات هذه الجائحة، على الرغم من أن أغلب ممارسيه ممن يعملون خارج أسوار الجامعة ومراكز وعيادات الطب النفسي، لا زالوا يفتقرون إلى القانون الذي ينظم ويحمي مهنتهم كعلماء نفس أو كأخصائيين نفسانيين. والحقيقة أن تمكين هؤلاء الذين يقدر عددهم بما يقارب 214 ممارس من بينهم 200 يشتغلون في القطاع الخاص، من قانون ينظم مهنتهم ويحميهم من كل شطط أو تطاول على التخصص من قبل بعض الدخلاء والمتطفلين الذين كانوا ولا زالوا يستغلون فراغ غياب هذا القانون لينخرطوا في ممارسات شعبوية وخرافية يعبثون فيها بصحة المغاربة النفسية ويستصغرون وعيهم ويستنزفون أرزاقهم، أصبح من الإجراءات الواجب حسمها من لدن الجهات المختصة. فبهكذا إجراء ستتقعّد المهنة وستتبدّد فوضى الممارسة النفسية بالمغرب، إذ سيعرف كل أخصائي نفسي وكل

ممارس سيكولوجي ما له وما عليه، وبالتالي ستتوقف طواحين الهواء عن الدوران والضجيج، وستعود خفافيش الليل إلى كهوفها ودهاليزها المظلمة لتصمت وتنام إلى غير رجعة.

تبعا لما تقدم يمكن التسليم بأن علم النفس بالمغرب، وبالرغم من بعض مظاهر التطور التي حققها في السنوات الأخيرة والتي مكنته من المساهمة الفعلية في مواجهة بعض تداعيات جائحة كوفيد- 19 النفسية، فهو لا يزال يتخبط في مشاكل توطينه ومأسسته، تكوينا وبحثا وممارسة. ونعتقد أن تجاوز هذا الوضع ومختلف أساليب المقاومة التي يسلكها البعض للإبقاء على واقع الحال كما هو عليه، يستدعي استعجالية العمل بالإجراءات الأربعة التالية (أحرشاو، 2020، ج):

- توسيع قاعدة علم النفس عندنا لتشمل كل الجامعات والكليات والمعاهد كشعبة قائمة الذات، وليس كمسلك يفتقد إلى الشروط البنيوية والتأطيرية والبحثية للتخصص الفعلي، أو كوحدات تكميلية تُدَرَّسُ ضمن مسالك تخصصات أخرى؛
- تعزيز وتمتين الهوية العلمية لعلم النفس بالمغرب عبر تقوية تشبُّعه بالتخصصات البيولوجية الطبية والعصبية المعرفية والمرضية العيادية، تكوينا وبحثا وإنتاجا وممارسة؛
- الخروج بمنظومة علم النفس البحثية من داخل أسوار الجامعات لمقاربة مشاكل المغاربة الحقيقية في مختلف مستوياتها وتمظهراتها المعرفية والوجدانية، الفطرية والمكتسبة، السوية والشاذة، التعلمية والمهنية، الصحية والأمنية وغيرها؛
- وأخيرا اعتبار علم النفس مثله مثل علوم الطب، بحيث يستوجب الممارسة أينما وجد الإنسان: في البيوت والمدارس، في المستشفيات والعيادات، في الشركات والمقاولات، في مؤسسات الأمن والعدل وغيرها، باعتماد بروتوكولات للتشخيص والعلاج والتكفل، وخطط للانتقاء والتوجيه والإرشاد، ومكاتب للخبرة والاستشارة والتدخل، خدمة لصحة الإنسان النفسية والعقلية ورقيا بها إلى الأجود والأفضل.

نعتقد جازمين أن دعوتنا هاته التي كان بالإمكان نعتها ب "البدعة المعرفية" قبل حلول فيروس كورونا المستجد ضيفا علينا وعلى العالم أجمع، أضحت في ظل الظروف العصيبة التي عشناها وما نزال نعيشها بمثابة المطلب المُلح الواجب على الحكومة في المغرب، ممثلة في وزارات التعليم والصحة والبيئة والشغل والأسرة، التفاعل والتجاوب معه بإيجابية وأريحية. فالأكيد أن لهذا المطلب في الأوقات الراهنة والمستقبلية ما يبرره ويدعمه من قرائن وحجج، قوامها التوقع المطرد بتزايد وارتفاع وتيرة الطلب على خدمات علماء وطب النفس مع توالي الأيام، وذلك بفعل الآثار والتداعيات السلبية الكبيرة والكثيرة التي فرضتها وستفرضها جائحة كوفيد-19 على الصحة النفسية والعقلية لساكنة العالم قاطبة. فالراجح حسب تقارير كثير من المنظمات الصحية والجمعيات النفسية عبر العالم أن أعداد حالات الإصابة باضطرابات القلق والرهاب والانطواء والاكتئاب والمزاج والنوم والاحتراق النفسي والتغذية وغيرها، إما نتيجة الحجر الصحي وملازمة البيوت للسواد الأعظم من الساكنة، وإما بفعل الإجهاد والعمل ليل نهار للطواقم الصحية والطبية والإدارية والأمنية والعسكرية، وإما بسبب فقدان كثير من الأشخاص لعملهم أو لأهلهم وأقاربهم أو لمصدر رزقهم، وإما أيضا بفعل أمراض مزمنة عضوية ونفسية سابقة، ستتزايد بل ستتضاعف في كثير من أنواعها ومظاهرها.

لذا نعتقد أنه وبقدر ما تكاثفت الجهود في عدد من دول العالم لتعزيز البنيات والتجهيزات الطبية لمواجهة أضرار الصحة البدنية لهذه الجائحة، بقدر ما ينبغي في المقابل العمل بالمثل لتقوية منظومة الصحة النفسية بمختلف مكوناتها ومعدّاتها حتى تصبح في مستوى رفع التحدي الذي سيكون كبيرا ومكلفا هذه المرة، وذلك من خلال توفير الشروط والظروف اللازمة والملائمة لأطباء وعلماء النفس لكي يقوموا، في حدود مواردهم البشرية المحدودة جدا وإمكانياتهم التجهيزية واللوجستيكية المتواضعة، بواجبهم ودورهم في مواجهة تداعيات هذه الجائحة على الصحة النفسية والعقلية للمغاربة. فتبعا لما تقول به حاليا عديد من المنظمات الصحية والجمعيات النفسية المشهود لها بالمصداقية العلمية والكفاءة المهنية من قبيل منظمة الصحة العالمية والجمعية الأمريكية لعلم النفس ومنظمة أطباء بلا حدود، إن العالم سيواجه بفعل تلك التداعيات أزمة وبائية حقيقية في مجال الصحة النفسية والعقلية. وهذه حقيقة تستوجب منا أخذها مأخذ الجد وخصوصا على صعيد استراتيجيات التعامل العلمي الجيد، حاضرا ومستقبلا، مع تلك التداعيات وتمظهراتها النفسية المختلفة.

إذن، في انتظار علاج ناجع للتعافي والتخلص من هذا الوباء الذي باغت العالم واجتاح جغرافيته بسرعة قياسية تفوق قدرات وإمكانيات الاستشفاء لكثير من دوله وأقطاره، لا يبقى أمامنا لمواجهته والتصدي لمخلفاته وآثاره على صحة الإنسان الجسمية والنفسية إلا سلاح الوقاية الدائمة التي تؤطرها كما سبق القول، حكمة العقل والتبصر، عمق الإيمان والتقوى، راحة النفس والمزاج، فضيلة الصبر والأمل، ووفرة القوة والمناعة. وهي كلها قيم وقناعات غالبا ما شكلت الحل المناسب لدى الإنسان في صموده أمام أعاصير الأوبئة والكوارث التي حلت به على امتداد العصور والأزمنة، وبالتالي سبيله الناجع في الإقلاع والانطلاق من جديد، بعد الإفلات من قبضة تلك الأوبئة والتعافي من مخلفاتها، بعزيمة قوية وبحيوية متجددة. فمتى بقيت مسببات هذه الجائحة قائمة واستمرت موجباتها حاضرة، فلا حل لنا لتفادي العدوى والإصابة، وكل ما يترتب عن ذلك من أضرار وخسائر في الصحة الجسمية والنفسية على حد سواء، إلا حل التقيد بالوقاية الصارمة وإجراءاتها الاحترازية الكفيلة بجعلنا نتأقلم ونتكيف لنتعايش معها في الحاضر والمستقبل القريب. فأي تهاون أو تهور أو إغفال لتلك الإجراءات الاحترازية، وأي تشبع بالأضاليل والبدع أو تمسك بالغيبيات والخرافات، سيقودنا لا قدر الله في غياهب ومتاهات مآلها المجهول أو الهلاك الذي لا استطاعة للمغرب ومؤسساته الصحية في الوقت الحالي على استيعاب مخلفاتها أو مواجهة تداعياتها بالخدمات الطبية والنفسية اللازمة.

خلاصة

في نهاية هذا المقال الذي حاولنا من خلال مضامينه توضيح ما حصل وما هو حاصل وما سيحصل في المستقبل جراء تداعيات جائحة كوفيد-19، نرى ضرورة التنصيص على الخلاصات الثلاث التالية:

- إن الحل المأمول لعودة الحياة إلى طبيعتها والقضاء على هذا الفيروس العابر للحدود، يكمن حسب الاعتقاد السائد الذي بدأت معالمه الأولى تتبلور في كثير من دول العالم، في تحصين شامل وعام عبر تطوير خطة علاجية ناجعة قوامها توفير نوع من المناعة الجماعية العالمية بدل الاكتفاء بنوع من المناعة الوطنية بالنسبة لكل بلد أو قطر؛

- لزومية منح الأولوية للاستثمار في منظومة البحث العلمي، والابتكار في المجال الطبي والاستشفائي، ثم في مجتمع المعرفة والاقتصاد الرقمي، كتفاعل إيجابي مع الأسئلة الكبيرة التي أصبحت تطرح نفسها بخصوص دور العلوم والعلماء في مواجهة تداعيات مثل هذه الجائحة حاضرا ومستقبلا، وبالتالي صَوْنُ المصير المشترك للإنسانية جمعاء وتقوية عروتها وناصيتها في الوجود والتواجد الكوني الآمن والمعافى؛

- ضرورة استغلال مناسبة هذه الجائحة لبناء وعي كوني شامل ودائم، قوامه العمل على توظيف وتسخير قيم العلم والتعلم، العمل والتنقل، التواصل والتواد، المحبة والصداقة، التعاون والتكافل، وهي كلها نِعَمٌ وجودية وقيم إنسانية تمنح للحياة طعمها اللذيذ، لما يخدم رفاه الإنسان ورقيه دون إلحاق الضرر بالأرض والطبيعة.

المراجع

الغالي، أحرشاو. (2020 أ). هذه سيكولوجية التدخل ومُواجهة مشاعر الهلع بسبب وباء "كورونا". موقع شبكة هسبريس، أبريل 2020.

الغالي، أحرشاو. (2020، ب). جائحة كوفيد-19 وسيكولوجية التدخل والمواجهة. موقع شبكة العلوم النفسية العربية على الفايسبوك، أبريل 2020.

الغالي، أحرشاو. (2020 ج). السيكولوجيا بالمغرب في ظل أربعة عقود من البحث والممارسة. مجلة بصائر نفسانية، 27 (11-17).

الغالي، أحرشاو. (2016). البحث العلمي في العلوم الإنسانية: الهندسة، الإنجاز، الإخراج. منشورات مختبر الأبحاث والدراسات النفسية والاجتماعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز فاس.

Blaise, M. (2020). Une brève histoire des épidémies. Usbek & Rica, https://usbeketrica.com/fr/article/une-breve-histoire-des-epidemies

Edgar, M. (2020, a). Le confinement peut nous aider à commencer une détoxification de notre mode de vie. L'OBS, https://www.nouvelobs.com/coronavirus-de-wuhan/20200318.OBS26214/edgar-morin-le-confinement-peut-nous-aider-a-commencer-une-detoxification-de-notre-mode-de-vie.html

Edgar, M. (2020, b). Nous devons vivre avec l'incertitude. CNRS, https://lejournal.cnrs.fr/articles/edgar-morin-nous-devons-vivre-avec-lincertitude

Laurent, A. (2020). Comment les sciences expliquent nos réactions face au coronavirus. Usbek & Rica. https://usbeketrica.com/fr/article/comment-les-sciences-expliquent-nos-reactions-face-au-coronavirus

Sharot, T. (2011). The Optimism Bias: A Tour of the Irrationally Positive Brain. Pantheon Books: New York.